

سورة الغاشية

مكية، وآياتها ٢٦

[نزلت بعد الذاريات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾

﴿الْغَاشِيَةِ﴾ الداهية التي تغطي الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها. يعني القيامة، من قوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ﴾ [المنكوت: ٥٥]، وقيل: النار، من قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، ﴿يَوْمَ نُوَفِّهِمْ عُقُوبَتَهُمْ﴾ [الأعراف: ٤١]،

﴿وُجُوهُ يَوْمَ يُغْشَىٰ خَشْيَةً﴾ ① ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ ② ﴿تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ ③ ﴿تَشَقَّىٰ مِنْ عَيْنٍ مَّانِيَةٍ﴾ ④ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ ⑤ ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ ⑥

﴿يَوْمَ يُغْشَىٰ﴾ يوم إذ غشيت ﴿خَشْيَةً﴾ ذليلة ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ ② تعمل في النار عملاً تتعب فيه، وهو جرها السلاسل والأغلال^(١)، وخوضها في النار كما تخوض الإبل في الوحل، وارتقاؤها دائبة في صعود من نار، وهبوطها في حذور منها. وقيل: عملت في الدنيا أعمال السوء والتذت بها وتعمت، فهي في نصب منها في الآخرة، وقيل: عملت ونصبت في أعمال لا تجدي عليها في الآخرة. من قوله ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ [الفرقان: ٢٣]. ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [آل عمران: ٢٢]، وقيل: هم أصحاب الصوامع، ومعناه: أنها خشعت لله وعملت ونصبت في أعمالها من الصوم الدائب^(٢)، والتهجد الواصب وقرئ: عاملة ناصبة، على الشتم. وقرئ: تصلى، بفتح التاء. وتصلى بضمها. وتصلى بالتشديد. وقيل: المصلى عند العرب:

(١) قال محمود: «ذليلة تعمل في النار عملاً تنصب منه وهو جرها السلاسل... إلخ» قال أحمد: الوجه الأول متعين لأن الظرف المذكور وهو قوله: (يومئذ) مقطوع عن الجملة المضاف إليها، تقديرها: يوم إذ غشيت، وذلك في الآخرة بلا إشكال، وهو ظرف لجميع الصفات المخبر بها، أعني: خاشعة عاملة ناصبة، فكيف يتناول أعمال الدنيا.

(٢) قوله: «من الصوم الدائب» الدائب والواصب كلاهما بمعنى الدائم. (ع)

أن يحفروا حفيرًا فيجمعوا فيه جمرًا كثيرًا، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه، فأما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلَى أو في التنور، فلا يسمى مصلبًا ﴿أَيَّ﴾ متناهية في الحر، كقوله: ﴿وَبَيْنَ حَمِيرٍ آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] الضريع يبس الشبرق، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبًا^(١)، فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل قال أبو ذؤيب [من الطويل]: ٢/٢٦١ ب

رَعَى الشُّبْرُقَ الرِّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى وَعَادَ ضَرِيْعًا بَانَ عَنْهُ النَّحَائِصُ^(٢)
وقال [من الكامل]:

وَحَبَسَنَ فِي هَزْمِ الضَّرِيْعِ فَكُلُّهَا حَذَبَاءُ دَامِيَّةُ السَّيْدَيْنِ حَرُودُ^(٣)

فإن قلت: كيف قيل ﴿لَيْسَ لَكُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ﴾ وفي الحاققة ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَيْلِيْنِ﴾ [الحاققة: ٣٦] قلت: العذاب ألوان، والمعذبون طبقات؛ فمنهم أكلة الزقوم ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع: لكل باب منهم جزء مقسوم ﴿لَا يَتَمَنَّوْنَ مَرْفُوعَ الْمَحَلِّ أَوْ مَجْرُورَهُ عَلَى وَصْفِ طَعَامٍ. أَوْ ضَرِيْعٍ﴾^(٤)، يعني: أن طعامهم من شيء ليس من

(١) قال محمود: «الضريع: يبس الشبرق، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبًا... إلخ» قال أحمد: فعلى الوجه الأول يكون صفة مخصصة لازمة. ذكرت شارحة لحقيقة الضريع. وعلى الثاني: تكون صفة مخصصة.

(٢) أي: رعى البعير الشبرق الريان، أي: الشوك الرطب. وذوى يذوي ذويًا: ذبل ذبولًا. وذوي كرضي أنكراها الجوهري، وأثبتها أبو عبيدة، أي: حتى إذا جف وصار ضريعًا يابسًا يتفتت بان عنه، أي: بعد عنه النحائص: جمع نحوص وهي الناقة الحائل، لعلمها أنه لا يسمن ولا يغني من جوع. ينظر: البحر (٨/٤٦٠)، الدر المصون (٦/٥١٣).

(٣) لقيس بن عيزارة. وهزمه - بالزاي - صدعه «ومنه: الهزم، أي: المتكسر. وناققة هزماء: بدا عظم وركبها من الهزال. وأما الهرم البراء فهو الحمض، وبعير هارم: يرعى الحمض. والضريع: نبت سيء ذو شوك. والحدب: الانحناء. والحدباء: المنحنية. وحرد حردًا: يبس وشح، يقول: حبست النوق في مرعى غث متفتت، فكلها منحنية الظهور أو الأرجل من الهزال، دامية اليدين من الشوك، قليلة اللبن.

ينظر: شرح أشعار الهذليين ص ٥٩٨، ولسان العرب (ضرع)، (هزم)، وأساس البلاغة ص ٧٩ (حرد)، وتاج العروس (ضرع)، (هزم)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٣/٣٩٦، وديوان الأدب ١/٤١٤، والمختص ١٠/٢٠١.

(٤) قال السمين الحلبي: قال الشيخ. أما جره فعلى وصفه لضريع، لأنه مثبت نفي عنه السمن والإغناء من الجوع، وأما رفعه على وصفه لطعام فلا يصح لأن الطعام منفي ويسمن منفي. فلا يصح تركيبه لأنه يصير التقدير: ليس طعام لا يسمن ولا يغني من جوع إلا من ضريع، فيصير المعنى أن لهم طعامًا يسمن ويغني من جوع من غير الضريع كما تقول: ليس لزيد مال لا ينتفع به إلا من مال عمرو. فمعناه: أن له مالاً ينتفع به من غير مال عمرو. قلت: وهذا لا يرد لأنه على تقدير تسليم القول المفهوم، منع منه مانع كالسياق في الآية الكريمة.

مطاعم الإنس، وإنما هو شوك والشوك مما ترعاه الإبل وتتولع به. وهذا نوع منه تنفر عنه ولا تقر به. ومنفعتنا الغذاء منتفتان عنه: وهما إمالة الجوع، وإفادة القوة والسمن في البدن. أو أريد: أن لا طعام لهم أصلاً: لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس؛ لأن الطعام ما أشبع أو أسمن، وهو منهما بمعزل كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس، تريد: نفي الظل على التوكيد^(١). وقيل: قالت كفار قريش: إن الضريع لتسمن عليه إبلنا فنزلت ﴿لَا يَسِينُ﴾ فلا يخلو إما أن يتكذبوا ويتعننوا بذلك وهو الظاهر، فيرد قولهم بنفي السمن والشيع. وإما أن يصدقوا فيكون المعنى: أن طعامهم من ضريع ليس من جنس ضريعكم، إنما هو من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَئِيَةٌ ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَّرَاتٍ مَبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿نَّاعِمَةٌ﴾ ذات بهجة وحسن، كقوله: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤]، أو متنعمة ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ رضية بعملها لما رأت ما أذاهم إليه من الكرامة والثواب ﴿عَالِيَةٍ﴾ من علو المكان أو المقدار ﴿لَا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطب. أو الوجوه ﴿لَئِيَةٌ﴾ أي لغوا، أو كلمة ذات لغو. أو نفساً تلغو، لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم. وقرئ: لا تُسمع، على البناء للمفعول بالتاء والياء^(٢) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ يريد عيوناً في غاية الكثرة، كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ﴿التكوير: ١٤﴾﴾، ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ من رفعة المقدار أو السمك، ليرى المؤمن بجلوسه عليه جميع ما حوله ربه من الملك والنعيم. وقيل: مخبوءة لهم، من رفع الشيء إذا خبأه ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ كلما أرادوها وجدوها موضوعة بين أيديهم عتيده حاضرة، لا يحتاجون إلى أن يدعوا بها. أو موضوعة على حافات العيون معدة للشرب. ويجوز أن يراد: موضوعة عن حد الكبار، أوساط بين

= ثم قال الشيخ: ولو قيل: الجملة في موضع رفع صفة للمحذوف المقدر في «إلا من ضريع» كان صحيحاً، لأنه في موضع رفع على أنه بدل من اسم ليس. أي ليس لهم طعام إلا كائن من ضريع. إذ الإطعام من ضريع غير مسمن ولا مغن من جوع، وهذا تركيب صحيح ومعنى واضح. انتهى. الدر المصون.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: فعلى هذا يكون استثناء منقطعاً إذ لم يندرج الكائن من الضريع تحت لفظ طعام إذ ليس بطعام، والظاهر الاتصال فيه، وفي قوله: «ولا طعام إلا من غسلين» قلت: وعلى قول الزمخشري المتقدم. لا يلزم أن يكون منقطعاً إذ المراد نفي الشيء بدليله. أي إن كان لهم طعام فليس إلا هذا الذي لا يعده أحد طعاماً، ومثله ليس له ظل إلا الشمس. انتهى. الدر المصون.

(٢) قوله: «على البناء للمفعول بالتاء والياء» أي: ولاغية: بالرفع فيهما. (ع)

الصغر والكبر، كقوله: ﴿فَذَرُّهَا تَفْثِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦] ﴿مَصْفُوفَةً﴾ بعضها إلى جنب بعض. مساند ومطارح^(١)، وإنما أراد أن يجلس جلس على مسورة واستند إلى أخرى ﴿رَزَايَا﴾ وبسط عراض فاخرة. وقيل: هي الطنافس التي لها خمل رقيق. جمع زريبة ﴿مَبْتُونَةٌ﴾ مبسوطة أو مفرقة في المجالس.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) ﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) ﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٢) ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢٣) ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ (٢٤) ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٥) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٢٦) ﴿

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ﴾ نظر اعتبار ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقًا عجيبيًا، دالًا على تقدير مقدر، شاهدًا بتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالأنقال وجرها إلى البلاد الشاحطة^(٢) فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت، وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتهما: لا تعاز ضعيفًا ولا تمانع صغيرًا، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار. وعن بعض الحكماء. أنه حدث عن البعير وبديع خلقه، وقد نشأ في بلاد لا إبل بها، ففكر ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق، وحين أراد بها أن تكون سفائن البر صبرها على احتمال العطش؛ حتى إن أظماءها^(٣) لترتفع إلى العشر فصاعدًا، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم. وعن سعيد بن جبير قال: لقيت شريحًا القاضي فقلت: أين تريد؟ قال: أريد الكناسة: قلت: وما تصنع بها؟ قال: أنظر إلى الإبل كيف خلقت. فإن قلت: كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة؟ قلت: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهـم؛ فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم، ولم يدع من زعم أن الإبل السحاب إلى قوله؛ إلا طلب المناسبة، ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين، وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مشبهًا بالإبل كثيرًا في أشعارهم، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعا بعيد المدى بلا مساك وبغير عمد. و ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصبا ثابتًا، فهي راسخة لا تميل ولا تزول و ﴿كَيْفَ

(١) قوله: «مساند ومطارح» عبارة النسفي. وسائدة وقوله. على مسورة عبارة النسفي. على موسدة. (ع)

(٢) قوله: «إلى البلاد الشاحطة» أي البعيدة. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله: «حتى إن أظماءها» في الصحاح: «الظمي» ما بين الوردين: وهو حبس الإبل عن الماء إلى

غاية الورد، والجمع: الأظماء. (ع)

سَطَّحَتْ ﴿ سَطَّحًا بتمهيد وتوطئة، فهي مهاد للمتقلب عليها. وقرأ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: خلقت، ورفعت/ ٢/ ٢٦٢؛ ونصبت، وسطحت: على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير: فعلتها. فحذف المفعول. وعن هرون الرشيد أنه قرأ: «سَطَّحَتْ» بالتشديد والمعنى: أفلا ينظرون إلى هذه المخلوقات الشاهدة على قدرة الخالق، حتى لا ينكروا اقتداره على البعث فيسمعوا إنذار الرسول ﷺ ويؤمنوا به ويستعدوا للقاءه. أي: لا ينظرون، فذكرهم ولا تلح عليهم، ولا يهمنك أنهم لا ينظرون ولا يذكرون ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴾ كقوله: ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْكَلْبُ ﴾ [الشورى: ٤٨]. ﴿ أَنْتَ عَلَيْهِمْ مُصَيِّرٌ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِبَارِءٍ ﴾ [ق: ٤٥]، وقيل: هو في لغة تميم مفتوح الطاء؛ على أن «سيطر» متعد عندهم وقولهم: تسيطر، يدل عليه ﴿ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى ﴾ استثناء منقطع، أي: لست بمستول عليهم، ولكن من تولى ﴿ وَكَفَرَ ﴾ منهم؛ فإن الله الولاية والقهر. فهو يعذبه ﴿ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ الذي هو عذاب جهنم. وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿ فَذَكَّرَ ﴾ أي: فذكر إلا من انقطع طمعك من إيمانه وتولى، فاستحق العذاب الأكبر وما بينهما اعتراض. وقرئ: ألا من تولى، على التنبيه. وفي قراءة ابن مسعود: فإنه يعذبه، وقرأ أبو جعفر المدني: إياهم، بالتشديد. ووجهه أن يكون «فيعالا» مصدر «أيب» فيعمل من الإياب. أو أن يكون أصله أَوَابًا: فعلاً من أَوَب، ثم قيل: إيوابًا كديوان في دَوَان، ثم فعل به ما فعل بأصل: سيد وميت. فإن قلت: ما معنى تقديم الظرف؟ قلت: معناه التشديد في الوعيد^(١)، وأن إياهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه، وهو الذي يحاسب على النقيير والقطمير. ومعنى الوجوب: الوجوب في الحكمة، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الغاشية حاسبه الله حسابًا يسيرًا» (١٧٤٧).

١٧٤٧ - تقدم برقم (٣٤٦) قال الحافظ: أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه بالإسناد إلى أبي بن كعب. انتهى.

(١) قال محمود: «إن قلت: ما معنى تقديم الظرف؟ وأجاب بأن معناه التشديد في الوعيد... إلخ» قال أحمد: ومعنى (ثم) الدلالة على أن الحساب أشد من الإياب، لأنه موجب العذاب وبادرته.